ليستميل الناس إليه كما استمالهم داعيةُ الامامية رحمه الله وان كان مبدأ عن اظهار دعوة أهل البيت . فكان استخدامُه الدينَ لنيل مناه وجهاً من السياسة ، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام اليه ، وقد رأى أنّ عصر موسى عليه السلام كان مقدَّماً بالسحر فغلَب السحرةَ ، وعصرَ عيسى عليه السلام مقدَّماً بالطب فغلَبَ الأطباءَ ، وعصرَ النبي صلى الله عليه وسلم مقدَّماً بالبلاغة ففضُل البلغاء ، فرأى أن عصرَه مقدَّم بالكيمياء فأراد أن يبهر الناس بما يستنبطه من المركّبات ،

وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة فى ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرَّفة وأنا على أُهْبَةِ السفر الى خُراسان وساصْدِر لك منها كتاباً أودِعه ذِكرَ الشيعة فيها وأخبار أممها من الفُرس والديلم وغيرهم . وبالله نعتضد فيما نعتمد . وهو حسبنا ونعم الوكيل

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدى والهادى

ولما[1] وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة لأُقْرِأَ عليهم سلامَ الفضل[2] أعزّه الله وأُطفئَ ما بنفسى من الشوق إلى الأنس بقربهم

---

(١) الرسالة المكتوبة فى خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه (٢) كان فى ذاك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذكور فى ابن الأثير

المحبوب ، إذ كانت المكاتبة بيننا طولَ هذه الأيام لم تزدنى إلاّ شغفاً بمحاسنهم واستطلاعاً إلى محيا جمالهم . ثم إنى قصدت باب فقيه الاسلام وقد اتخذه المهدى (رحمه الله) قاضىَ قضاةِ المسلمين ، وصارت إليه جوائز الهادى والرشيد من بعده حتى بنى لنفسه فى درب أبى خَلَف[1] من ناحية الكَرْخ الدارَ التى لم يَبْن مثلَها إلاّ ملك أو أمير ، فألفيته فى مجلس حافل بالأدباء والأمراء وعليه[2] المبطَّنة والطَّيلسان وقَلَنْسُوة طويلة[3] قد حوَّطها بعمامة سوداء دعته الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها على لون شعارهم ، وهذا هو الزِّىُّ الذى يروم أن يكون مخصوصاً بالفقهاء[4] لتمييزهم عن سائر الناس ، فكان لِمَلْقانا موقفٌ يستبكى الحمام لفرط ما بنا من الأشواق ، وصرفتُ اليومَ بقيته بحضرته أجاذبه أطراف الحديث ، وقد نبأنى بأحوال القوم فى المدة التى كنت منفصلا فيها عن دار السلام ، لأن القضاة قد يَرِدُ عليهم من طرائف الأخبار[5] ما لا يرد على غيرهم ، ولا سيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليُجلسه على سريره بجانبه[6] ، ويقوم له إذا دخل عليه ولا يقلِّد القضاء[7] ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلاّ من أشار به إليه .

ولقد ذكرت لك فى رسالتى من خُراسان ما اتصل بى من أخبار المهدىّ والهادى رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة . أما أخبارهما الخاصة

---

(١) محلة ببغداد ذكرها ابن خلكان ١ : ٣٠ (٢) المسعودى ٢ : ٣٣٧

(٣) وجدت فى العقد الفريد ٣ : ٤٣ و ٢٣١ لفظة الطويلة بمعنى القلنسوة

(٤) ابن خلكان ٢ : ٤٥٠ والأغانى ٥ : ١٠٩ (٥) الاتليدى ٧٩ (٦) الاتليدى ١٤١ (٧) الماوردى والاسحاق ٩٠

فقد حدثنى بها لسانُ الشريعة على إسهاب لاموضع له فى هذا الكتاب ، على أنّ المهدىّ مابرح مستمراً إلى انقضاء خلافته على ما ذكرتُ لك من استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تعزيز الملة والدولة ، ولقد جرت الشريعةُ فى أيامه وإلى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لانقطاع النظر فيها إلى أبى يوسف من دون الخلفاء ، بحيث لم يتولَّ القضاء الاّ أهلُ العلم ومن لا يميل به طمعُ النفس إلى الخروج عن جادّة العدل . وقد أقرَّ رجاله فى وظائفهم إلاّ وزيرَه يعقوبَ وقد وضَح له ميلُه مع أهل البيت[1] ورفع إليه المفسدون بيتين من الشعر أغرَوْا بشاراً على قولهما ، وأطاروا ذكرَهما كل مطار .

بنى أمية هُبُّوا طال نومُكُمُ ... إنَّ الخليفةَ يعقوبُ بنُ داود

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خليفةَ الله بين الناى والعود

فنكبه لذلك وأُلْقِىَ فى بئرعَمِيَ فيها وهو يتوسد التراب إلى أن مات فى خلافة الرشيد قبيل عودتى من خراسان .

وكانت مأثُرَة المهدىّ فى آخر أيامه وضعَه البريدَ[2] إبلاً وبغالاً فى كثير من البلاد مما استنفق أموالا طائلة ، ولا سيما فيما بين مكة والمدينة إلى العراق ، وهو أول من أقام البريد من الحجاز إلى الحضرة لِمَا يروم من تناول الأخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة ، إذ كان على تيقظ من العرب فى مناصرتهم لأهل البيت بالمواطن المشرَّفة كما كان على حذر من أهل الشام فى استظهارهم على عماله بمن يجاورهم من العرب الذين ما كانوا

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٦ والمسعودى ٢ : ١٩٦ والفخرى ٢٢١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٢٦ وأبو الفداء ٢ : ١٠ والسيوطى والكنز ١٠٦

بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد الأعظم من قبائلهم ، ولذلك كان يرى المهدىُّ إمدادَ عُمّاله بالرجالِ والعربِ بالمال حيناً بعد حين ، حتى دعته الحال إلى الشخوص بنفسه إليهم فزار دِمَشْق[1] وبيت المقدس ، [2] وأخذ فى إزالة الخلاف الذى كان بينهم فى بادية الشام بما فرق فيهم من الأموال الجِسام .

أما الهادى (رحمه الله) فانه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتتبع الزنادقة فمضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكّل بهم رجلا يقال له عبد الجبار [3] وهو المعروف بصاحب الزنادقة ، فاقتص أثرهم فى الزَّوْرَاءِ حتى لم يدع منهم عينا تطرِف . فما كان الزنادقة فيما أخبرنى أبو يوسف إلاَّ لِزازَ شرٍّ فى عقيدتهم وإن بدا للناس ظاهرٌ لهم من الظرافة وحسن السيرة ، [4] كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله فى رجل قد اتُّهِم بالزندقة [5]

لستَ بزنديق ولكنما أردت أن تُوسَمَ بالظَّرف

فانما يتعدَّوْن مذهبَهم من التكذيب بالانبياء وتعليم الناس بُغضَ الخلفاء إلى أن يمسوا الشرع الشريف بما لا يحلله كتاب الله ، فقل للمفترين على الله إنه يُحْضِرهم فى يوم لا يُغنى عنهم شىء ولا هم يرحمون . واعلم أنه لم يَلِ الخلافة قبل الهادى فى سِنِّه ، ولكنه لم يستكمل ستا وعشرين سنة حتى مات ، فكانت مدة ولايته سنة وشهرين إلاَّ أياما ، وكان ذا جبروت [6] وإذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المُشَهَّرة والأعمدة والقِسِيِّ

---

(١) قضاة الشام (٢) الأغانى ٦ : ٦٧

(٣) الأغانى ٣ : ٧٢ (٤) ابن الأثير ٦ : ٣٨ (٥) الأغانى ١٧ : ٧٢

(٦) الخميس والمسعودى والسيوطى

الموتَّرة ، ولذلك كثُر السلاح فى عصره ، وأحْرَز منه الشىء الذى كان يحب التباهىَ به ، حتى قيل إنه أعطى شاعراً مدح سيفا عنده كان لعمرو بن معدى كرب يقال له الصَّمْصامة عشرين ألف درهم على هذه الأبيات .

حاز صَمْصامة الزَّبيدىِّ من بـــين جميع الأنام موسى الأمينُ
سيفَ عمرو وكان فيما سمعنا خيرَ ما أُغْمِضت عليه الجفون
أخضرُ اللون بين خديه بَرْدٌ من ذُعاف تميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعقُ نارا ثم شابت به الذعافَ القيون
فاذا ما سللته بهر الشمـــس ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالى من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصارَ كالقبَس المُشْـــعَل ما تستقر فيه العيون
وكأنَّ الفرندَ والجوهرَ الجا رى على صفحتيه ماء مَعين
نِعْمَ مِخْراقَ ذا الخليفةِ فى الهيجـــاء يقضى به ونعم المعين [1]

وقد صارت المراتب فى أيامه الى المنتشئين من البرامكة والطاهريين والمهالبة وغيرهم ممن كنت أعرفه صبيا قبل نزوحى إلى هـذه الرحلة التى امتدت بى طويلا . وكان على وزارته الربيعُ بنُ يونس حاجب أبى جعفر (غفر الله له) وعلى بيت ماله المعلَّى بن طريف ، [2] وعلى حجابته الفضلُ ابنُ الربيع ، وعلى جنده آل أبى العَلاء ، وقد حدثنى بأخباره معهم بعض من كان مقربا إليه من النَّدْمان ومنهم رجل من أهل الحجاز يقال له عيسى بن دأب ، وقد بلغ عنده من الحُظْوة لديه والجلوس بحضرته على المتكآت ما لم يكن يطمع به غيرُه فى ذلك ، [3] فكان يصف لى أخبار مولاه بما يرفعه

(١) الحصرى (٢) الاغانى ٣ : ١٥٣ (٣) المسعودى ٢ : ٢٠٢

إلى مساماة العظماء من أهل الرأى والتدبير، غير أنى ما عرفت له شيئاً من هذه المحاسن وهو صبىّ ولا رأيت فى دولته الزُّهاء الذى أشرق على دولة المهدى قبله ثم الرشيدِ مِن بعده، لأنه كان منهمك النفس بحب اللهو وولد له فى فَتَاء سِنِّه أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى [١] فيما سمعت. ولذلك كان الطامعون إليه من غير أهل المراتب أكثرُهم أهلُ لهو وطرب. وكان أقربهم إليه مكانا وأفضلهم عنده منزلة إبراهيمَ المَوْصِلىَّ النديم، وهو أعجمىُّ الأصل بارع فى جميع فنون العلم والأدب إلاّ أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانويه [٢] وسياط، فبلغ من الأجادة فيه المكانَ الذى لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز، ولذلك كان الهادى إليه أميلَ منه إلى سواه من الندماء، يقال إنه كان إذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف، [٣] وقد قال لى اسحق ابنُه والله لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب [٤].

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولمّا جُلْتُ فى المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها فى سَعَة من العمران ما كنت أعهدها قبل هذا الوقت، فما كفى أهلَها الموسرين ما رفعوا فى مدينة المنصور من المبانى المشرقة حتى توسعوا إلى سكنى الجانب الشرقى المعروف بالرُّصافة، فبنَوْا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات، [٥] وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤ (٢) الأغانى ٥ : ٤ (٣) الحصرى ٢ : ٢٠١
(٤) الأغانى ٥ : ٦ (٥) قال ابن خلدون نقلا عن الخطيب إن الحمامات بلغ عددها فى بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار

تزيينها بالبنايات العامة ، حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق ، تجتمع محاسنه فى جزء من محاسن المدينة التى أُحْدِثَتْ فى جواره .

ولقد أكبرتُ من بغداد بلوغَ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس بأنحائها ، وتموجهم كالبحر فى أرجائها ، يقال إنّ عددهم يزيد عن ألف ألف وخمسمائة ألف ،[١] وهذا جمع لم يكن مثلُه ولا قدرُ نصفه فى مدينة من العالم قط ، فانما يدل اجتماع الناس إلى هذا القدر العظيم على أنْ ليس فى المدن أيْمَنُ[٢] ولا أيسر من الموضع الذى يتكوَّفُون فيه تكوُّفَ الرمال . ثم أعظمتُ بلوغَ النعيم فى أهلها بما رأيتُ من توفر أرباب الغايات عندهم على الفنون التى لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران ، وإنما تتوسع المنفعة من صناعتها ومصنوعاتها إلى مطالب الترف الذى يقع فى الأمم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم .

وإنه يتعذر علىّ بهذا القلم الذى لامادة فيه أن أصف مفاخر المدينة[٣] التى أقلُّ ما تصيبه من الشرف أنها تزهو ببهاء السلطان . وتضم إليها من عيون الأعيان كثيراً حتى إذا لَقِىَ السائر جماعة منهم فى الطريق لم يفطن لهم من حيث الكثرة مع أن أقلَّهم فى الثروة والجاه يتعذر على أكبر المدن أن تحمل سكناه وتسع جنده وغاشيته والطامعين إليه من كلّ الوجوه[٤] فلقد

متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لاتساع العمران .

(١) فى الاتليدى أنهم ألف ألف وخمسمائة ألف (٢) ابن الاثير ٦ : ٩٦ وأبو الفداء ٢ : ١٩ (٣) يقول الحصرى أن أدباء العصر يصفون الجمال بقولهم كأن بغداد مسروقة من حسنه وظرفه (٤) الأغانى

يمشى أهل النعمة فيها بالغلمان[١] والحاشية إلى عدد يتوهمه السامع بعيداً عن الصدق، فشاهدت فى محلة العتّابية[٢] أميراً قد ركِب فى مائة فارس وأحدق به الغلمان حتى ملئوا الطريق وسدّوا على الناس سبيلهم ، إلى أن مرّ ، وشاهدت فى مَشْرَع القصب[٣] على دِجْلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكِب عظيم من الخيل والرَّجْل كأنى به قيصر على مركَبه أو كسرى فى جلال موكبه . وربما عدّ المحصى فى ولد العباس أكثر من ألف رجل[٤] يركبون فى مثل هذا الجمع ، وكلهم فى سَعة من الثروة وترف من الحضارة . وإنما ساد العمران عند البغاددة إلى حد الترف تشبُّهاً بما يرون من الرشيد فى إقباله على الدنيا بطلب النعم ، حتى يَصْدُقَ المثل الذى يقول « الناس على دين المَلِك» ، فهو الذى ألبس الدنيا هذا الجمال بسَعة عطائه ، ولم يُسمع عن الخلفاء من كان أسمحَ منه ببذل المال .[٥] يقال إنه ينفق على طعامه فى كل يوم عشرةَ آلاف درهم ،[٦] وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لوناً من الطعام ،[٧] وقد أخبرنى أبو يوسف أنه لما بنى بزُبَيْدَةَ بنتِ جعفر اتخذ وليمة لم يَسْبِق مثلُها فى الاسلام ، وجعل الهباتِ فيها غير محصورة حتى كان يَهَب أوانىَ الذهب مملوءة بالفضة ، وأوانىَ الفضة مملوءة بالذهبِ ونوافج المسك وقطع العنبر،[٨] وبلغ جملة المُنْفَقِ فيها من بيت المال خمسةَ وخمسين ألفَ

(١) الاغانى ٤ : ١٠٤ و ٥ : ٨٤ وابن الاثير ٥ : ١٤١ و ٢٣١ والمستطرف ١ : ٦٥ (٢) ذكرها ابن خلكان ١ : ٧٤١ (٣) ذكره ابن خلكان ١ : ٧٩
(٤) فى مروج الذهب ٢ : ٢٥٩ أن المأمون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفاً (٥) الفخرى ٢٣٠ والخميس ٢ : ٣٣١ (٦) المسعودى ٢ : ٣٤٢ و ٢٢٠ والمستطرف ٢ : ٣٤١
(٧) السيوطى والعقد الفريد وتزيين الاسواق والمقدمة

ألفِ درهم، وأمر أن تُجْلَى زبيدة فى درع من الدرّ لم يقدر أحد على تقويمه بثمن، وزينها بالحُلِيّ حتى لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من الجوهر، وهذا شيء من الاسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم [1] ولا صِبية الأمويين مع ما تقلبوا فيه من المال الكثير.

ومن جمال الدنيا فى هذه الأيام أنّ الرشيد لا ينفرد وحده بكثرة الانفاق والتبذير، فانّ زبيدة زوجَه تصنع أعمالا تفوق مَقْدُرَةَ الملوك، كمَثَلِ اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورةَ كل طائر من الذهب وأعينُها من ياقيتَ وجواهر، يقال إنها أنفقتْ عليه نحواً من ألفِ ألفِ دينار [2] وكمَثَلِ اتخاذها الآلةَ من الذهب المرصَّع بالجوهر، والثوبَ من الوَشْيِ الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألفِ دينار، والقبابَ من الفضة والأَبنوس والصندل عليها الكلاليب من الذهب الملبَّس بالوشى والديباج والسَّمُّور وأنواع الحرير، وكمثل اتخاذها شمعَ العنبر واصطناعِها الخُفَّ مرصعاً بالجوهر واتخاذِها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون فى حاجاتها ورسائلها، [3] إلى غير ذلك من الأمور التى تدوّن فى سيَر الملوك لتعظيم موضعهم من السلطان وذكر ما تقلبوا فيه من الطيبات.

---

(١) وجدت فى بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ فى قصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ سبعمائة خادم منهم ثلاثمائة عبد اسود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا الفرس موضع فى جانب العظيم من ترف العباسيين (٢) المستطرف ١ : ٩٨ وذكر ان التى صنعته هى أم المستعين (٣) المسعودى ٢ : ٤٠٢

ولم أر مثل هذا الترف فى غير دور الخلافة إلاّ عند البرامكة الأمجاد ، وإليهم ينتهى جمال الملوك وإشراقهم ، فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يَرَوْهُم أكثرَ مما يجلسون للخليفة . ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب المُحوَّلِ من الجانب الغربىّ [١] فى موكبٍ عظيم وقد طرّز ملبسُه و بين يديه الجُند والغلمان ، والحَفَدُ والأعوان ، وهو واضع طَرْفه على مَعْرَفة فرسه ، والناس ينظرون إليه وهو لا يلتفت إليهم كبراً وجلالة ، وكان الرشيد نفسُه إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة ، والخزائن المجزّعة ، والمطارح من الوشى والديباج ، والجوارى يرفُلن فى الحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح التى لا يدرى ما هى لطيبها ، خُيِّل إليه أنه فى الجنة بين الجمال والجوهر والطيب .

وقد انتهى ترف شبابهم إلى الغاية التى لا وراء بعدها من التمتع بسَعة النعيم ، وربما كانت مجالس الطرب فى دورهم أجلّ منها فى دار الرشيد وأجمع لمُعدّات اللهو ، [٢] لأن عندهم الغوانى [٣] اللواتى لا مثيل لهنّ فى البلاد ولا سيّما فَوْز وفريدة [٤] ومَنَّةُ [٥] وهن أظرف القيانِ غناء وأحسنهن ضرباً بعود .

واعلم أنّ الغناء من قبل البرامكة ما كان يُعلَّم فى دور الامراء لغير الصفر والسود ، [٦] فلما نشأ أولادهم أحبوا أن يعلّموه الجوارىَ الحسان [٧] ليزيد جمالهن فى الغناء تأثيرا فى النفوس ، وقد أخبرنى نافذ من بعض حجابهم

---

(١) ذكره الأغانى ٦ : ٧٨ والمسعودى ٢ : ٢٣٧ (٢) الأغانى ١٥ : ١٤١
(٣) الأغانى ١٥ : ١٤١ (٤) الأغانى ٣ : ١٨٣ (٥) الأغانى ٤ : ٨٧
(٦) الاغانى ٥ : ٩ (٧) الاغانى ٥ : ١٤ و ١٧

أنه لما زارهم الرشيد فى يوم من أيام فراغه أخرجوهن الى البستان فاصطففن مثل العساكر صفين صفين ، وغَنَّيْنَ وضربن بالعيدان ونقرن على الدفوف إلى أن طلع الى مقاصير القصر .

ولا نعلم عن أحد من الملوك السالفة أنه نال من الطيّبات ما هوموفور عند ملوكنا فى هذا الزمان ، فكأن بغداد قد ألقت جوانبها على مهاد الدَّعة ، ووُجِدَت لأهلها أسبابُ النعيم والكِبْرِ[1] بما توفر عندهم من المال .

ترف البغاددة وانغماسهم فى طيبات العيش

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقُص شيأ فشيأ عند من هم أقل منهم فى الجاه إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس . وهم وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدرٍ لهم واتساع نعمة عندهم أخذوا يمتعون أنفسهم من الطيبات فى جميع وجوهها ، بعد أن تغربوا بالاسفار التى اكسبتهم التجارِب وأرتهم العجائب ، وأوجدت لهم التجاراتِ والمكاسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأنفر ما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عَمرت عندهم الأسواق ، وتطرّقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران إلى إقتناء الأشياء للزينة والمباهاة ، كابتياعهم السلاح المنزَّل بالذهب ، وتنافسهم فى الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر ، واقتنائهم العددَ الكثير من الغلمان والقيان إلى غير ذلك مما كانوا يوجهون رُسُلَهم فى طلبه من الجهات ،[2] فلما حُمل اليهم كلُّ غال ونفيس من البلاد تحقق لدىَّ أن

---

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبر من عيوب بغداد (٢) ذكره تزيين الاسواق ١ : ٣

محاسن الدنيا قد اجتمعت فى بغداد .

ولقد شهِدت سوق الجوارى بُعَيْدَ عودتى من خراسان ، وقد أقيمت فى الموضع المعروف بسوق النخاسين ، (١) وهم الرجال (٢) الذين يجلبونهن من أطراف الدنيا إلى بغداد ، فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولّدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان بينهن من الغانيات اللاتى يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذى لا غاية بعده ، (٣) وبما يتخذن من العصائب التى ينظمنها (٤) بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب .

ولقد يخال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن بيعهن إنما هو جارٍ عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق ، غير أنه لا يستقر فى هذا الوَهَم الطارىء بعد أن يرى تطارحهن على أهل النعيم . ولقد سمعت أن بعض الغوانى المُتْرَفات يتخلصن سراً من حيث لا يُحْبِبْن المُقام ، ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء إلى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ، ومواليهن بهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون فى بيعهن مثلَ تصرف التجار ببضائعهم ، واذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هى العادة المألوفة فى البيع والشراء . ولقد وقفت فى ذلك اليوم والدَّلال ينادى بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسنِ ما يكون من أوصاف الجمال (٥) وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رائجة

---

(١) الاغانى ٩ : ١٢٨ (٢) الاغانى ٥ : ١٢٦ (٣) الاغانى ٢ : ١٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٤٣٩ (٤) الكنز ٤٧ (٥) الاغانى وحلبة الكميت

أعود إلى ما كنت بصدده من ذكر البغاددة فى ترفهم المفرط فإنى رأيتهم يزينون مجالسهم بالفَرْش الفاخر والمتاع الثمين ، ويُلَبِّسون حيطانها بالوشى والديباج ، ويُعْنَوْن بغرس الأزهار فى جِنانهم ، حتى إنهم لَيجلِبون لها الرياحين [١] من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان ما يُقَوَّم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار ، [٢] ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطا ، ويميلون الى اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان ، ويتفننّون فى مَلاذِّ الطعام إلى أن يشتروا الصيد فى غير أوانه ، والثمارَ فى غير إبّانها بما يزن مثله فضة ، ويتمتعون بالذوق فى غير طعامهم بما يمضُغون من الطيب وورق التانَبول الهندى الذى يمزِجونه بالنُّورة المبلولة مع الفَوْفَل لتطييب النكهة وتشهية الأكل وإحداث الطرب والأَرْيَحيّة فى النفس ، [٣] ويتخذون مقاعدهم فى أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها ، مما ينقُشون فى الرُّخام فاذا ما أصابت الأجسادَ منها الرطوبةُ الوافية بترويح النفس اتخذوا فى السقوف مراوح [٤] يعملون لها حبالا تجرها ، فيجذبونها فيُهب عليهم النسيم البارد ، ويستجيدون فى اللباس والزينة وركوب الخيل بالديباج والحِلْية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التى لم تبلغها الأمم المُتْرَفة من قبلهم .

---

(١) ياقوت ١ : ٦٨٧ والمسعودى ١ : ١٨١

(٢) الاغانى ٥ : ١١٥

(٣) المسعودى ١ : ١٠١

(٤) الكشكول والاغانى ١١ : ٩٩ والعقد ٣ : ٢٣٥

دخولى على هارون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد باليسير من الكلام ما فيه دلالة على عظيم ما صارت اليه فى هـذه الأيام ، فاكتبُ الآن إليك ما يأتى به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلنى به من جميل العطف والاحسان ، فانى مضيت إلى داره فى ذلك اليوم الذى وصلت فيه إلى الحضرة فأصبت ابنَ البواب جالسا فى حُجُرات الحجاب ، وهو الذى يخلُف الفضـل بن الربيع على حجابة الخليفة ، (١) فلما رآنى أوسعنى سلاما وتحيـة ، ثم جاوزنى إلى قصر الرشيد وهو قصر بناه (٢) لنفسه تجاهَ دار الضيافة (٣) من دور الخلافة ، وقد استجاد فرشه وأفرغ العناية فى تجميله بأنخر أنواع الزينة ، وأقام فيه الأساطين التى يصطف بجوانبها الغلمان ، (٤) وقد بناه على دِجلة بحيث يسمع صوت الذين يعبرون فى الزوارق ، (٥) وكثيرا ما كنت إذا زرته بعد ذلك أصبته جالسا إلى الشُباك يستمع غِناء الملاّحين فى الزلالات ، (٦) فلما دنوت منه بادرت إلى يده فقبلتها فضمنى اليه بالتحية والسلام . وأقبل يلاطفنى برقيق الكلام.

وكان الرشيد طويلا عَبْلَ الجسم أشـــقر اللحية عليه مهابة الملوك وجلالتهم ، (٧) وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان ، فاذا أصغَى لمتحدث بين يديه حوّطه ببصره حتى لا يجد سـبيلا إلى أن ينطق فى حضرته بغير صدق . فلما وقفت بين يديه أمر الفرّاش (٨) أن يأتى بما أتكىء عليه ، (٩)

---

(١) الاغانى ٢٠ : ٤٢ (٢) الاغانى ٥ : ٣٣ (٣) قصر من قصور الخلافة ذكره الاغانى ٦ : ١٣٣ (٤) الاغانى ٦ : ٧٦ و ٥ : ٣٣ (٥) الاغانى ٩ : ٦٧ (٦) الاغانى ٣ : ١٧٧ (٧) العقد والخميس والسيوطى وابن الاثير (٨) ذكره الاغانى ٩ : ٦١ (٩) ابن الاثير ٦ : ٣٨ والاغانى ٥ : ٢٣ و ٩ : ٦١

وهذا تعطفٌ من الخليفة لا يكون الا للبرامكة وأبى يوسف وجِلّة المشايخ من ولد العباس . ثم أنه استدنانى [١] إليه وأخذ يحادثنى بما يستعذبه من أحوال صباه ، ويحفظ لى بنفسه من جميل الذكر ، وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة ، إلى أن ذكر لى حديثه عن خُراسان فاخبرته عما كان هنـاك من الاختلال ، وأنَّ الفضل رَتَق الفَتْق الذى دبره أهلها بالمحال . وأطلق يده فيهم بالضرب والنَّكال . وكنت عند ما ذكرت ذلك قد بادرت إلى سيفى كما جرت العادة بألاّ يكلم الخليفةَ أحد بما فيه الوَهْن إلا بادر إلى سيفه [٢] تعظيما للامر وقياما بواجب الاجلال . فقال سبحان الله لقد أوصينا الفضل بهم خيراً لأنهم محبون لنا ، [٣] وهم سيوف دعوتنا وأنصار دولتنا ، ومن لهم حق الدالّة علينا وحرمةُ الوسيلة عندنا ، فقلت يا أمير المؤمنين إنّ الفضل أخاك لم يمكّن السيف فى رقابهم إلا بموافقة القُوّاد الذين إذا ما شاورهم فى الأمر وقع بالموافقة من نفوسهم مقاتلة خوارجَ قد تراخت بهم الحال . وصارت فتنتهم إلى سوء المآل . فما ذكرت له ذلك أعرض عن الافاضة فى هذا الحديث ، وأخذ ينكُت الأرض بشىء فى يده ، ثم قال وهذه مصلحة التجارة فما الذى يكتب إلينا الفضل عن لزوم حراستها بالجند ؟ فقلت له إنّ فى خراسان تجارةً تباع بأبخس الأثمان فاذا أمن السابلةُ الأعرابَ جلبوا خيراتها إلى العراق واتجروا بها مع أمم البحر ، فقال حسن ولكن لنا أعداء ينبغى أن نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الاسلام ، ونحن ساهرون عليهم ومرتقبون لهم بالجند إذ لا بد للراعى من حِراسة

---

(١) الاغانى ٥ : ١٠٦ (٢) الاغانى ٥ : ٥٩ (٣) العقد الفريد وابن الاثير ٦ : ٧

الرعية ، [١] ولقد يكفى التجارَ ما أمَّنا لهم من السبل فى غير الديار العران ، وما احتفرنا لركبهم من الرَّكايا ، وأوجدنا لهم من المناهل فى البُلْدان العامرة التى نحب أن تكون سوق التجارة فيها دارَّة ، وأما تجار خُراسان وما أليها من البُلْدان النائية فانا لا نحسَب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهم .

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضه عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة ، ثم يُقبل على نفسه بالتأمل والفكرة . فأُوهِمْتُ أنه يرى فيها مسألة تنقبض نفسه دون بسطها إلىّ ء فاذا الأمر على خلاف ذلك ، وإنما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وايثار بعضهم على بعض بالخلافة [٢] فاتفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد فتفرسه الرشيد وقال له ما وراءك يامسرور ؟ فقال ما تحب ياأمير المؤمنين . ثم قام مَقامه الذى كان إذا قامه علِم الرشيد أنه يريد أن يُسارّه بشىء ، [٣] فأومأ إليه بالدنوّ فألقى فى أذنه كلاماً ثم تنحى ، فقال لى الرشيد هذا خادمنا الأمين نرتاح إليه فى الأسرار والمهمات ، لم يحدثنا جهراً بحضورك ولكنه سارَّنا فى أمر مما أخذنا من تقديم المأمون على الأمين بالولاية ، لأننا نرضى سيرته ونأمَن ضعفه ، [٤] ونعرف فيه حزم المنصور [٥] ونُسكَ المهدىّ وعزةَ نفس الهادى ، مع أن بنى هاشم يميلون إلى الأمين وأنشد . [٦]

أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن يُنْقَضَ الحبل الذى كان أُبْرِما

---

(١) قالها الرشيد وذكرها الوطواط ١٠١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٥٨
(٣) الأغانى ٥ : ٣٣ (٤) المسعودى ٢ : ١٠ والمستطرف ١ : ٩٣
(٥) الأغانى ١٧ : ٨٠ (٦) الحصرى ٢ : ٤٩ والمستطرف ١ : ٩٣

فلما رأيت بلوغ القلق فى نفسه من هذا الأمر تقدمت إليه فيما تقدم به يحيى إلى أبيه ،[١] والفضلُ إليه[٢] من مبايعة الولد بعد الآخر ، مع علمى بأن ذلك أمر لا يجرى فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذى يريده الرشيد بعد مارأينا من العباسيين تطاولَهم فى أمر الخلافة ونقضَهم العهود التى كانوا يكتبونها على أنفسهم فى حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر[٣] لما رسخَت دولته ، ومضت فى الناس كلمته ، لم يجد من نفسه رادعاً فخلع ابن عمه من الولاية وصيّرها إلى المهدىّ من بعده ، فلما وَلىَ المهدىّ بحيلة الربيع ، وأخذ فى استمالة الناس بما فرّق فيهم من المال لم يجد منهم عند اظهاره أغراضه فيهم إلا المتابعَ له والموافق على خلع ابن عمهِ كما علمت . ثم لما صارت الخلافة إلى الهادى وفى أعناق المسلمين المبايعة للرشيد بعده أراد أن يخلَعه[٤] عنها ويصيّرها إلى جعفر من أولاده لولا ما أجراه يحيى رعاه الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمتُ بعد الأوْبة من خراسان.

وإنما كان المأمون أحقَّ بالولاية من الأمين لأنه أكبر منه بأيام وإن لم تكن أمه هاشمية مثلَه ، فلو صارت الخلافة إلى من هو أصغر منه وهو حاضر لم يصبر على ذلك ، فكان يخشَى الرشيد من تقديم الأمين عليه بالولاية وقوعَ الفتنة بينهما وزوالَ الخلافة عنهما جميعاً إلى الواقفين لها من أهل البيت ، أو إلى من كان أقرب الهاشميين إلى استخلاف أبى العباس ، فان عمّ عمّ عمّ الرشيد إلى ثلاثة أعمام حاضرون فعبد الصمد بنُ علىّ عمُّ

---

(١) المسعودى ٢ : ٢١٥ (٢) الأغانى ١٧ : ٧٨ وابن الاثير ٦ : ٤٣
(٣) ابن الأثير ٦ : ٥٨ وأبو الفداء ٢ : ١١ (٤) ابن الأثير ٦ : ٥٨

العباس بن محمد والعباسُ عمُّ سليمان بنِ المنصور وسليمانُ عمُّ هرون [١] فهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد ، فلا يسَع الرشيد مخالفتُهم فى تقديم المأمون على الأمين ، وإنما يرجع إلى الرأى الذى تقدمت به إليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة فى بيته ، ومصيرِها إلى من يحبُّ [٢] من أولاده .

الموازنة بين الرشيد وأبى جعفر

هذا فصل أفْرِده لذكر سياسة الرشيد وبيان الموازنة بينه وبين أبى جعفر [٣] إن صحت المقابلة بينهما ، فانى لم أجد فى الملوك من جمع فنون السياسة الى عقل الملوك وفضلهم [٤] وحكمتهم ودهائهم مثلَه ، تجتمع محامدُه فى قربه من الخير وبعده عن البغى الذى كان طبيعة فى أبى جعفر وبعض العباسيين ، حتى اذا صار إليه الأمر كان أول ما أصدر من الأمر أن تُعاد إلى الناس الضِّياع التى اغتصبها آباؤه وتُردَّ الأموال المغصوبة إلى أهلها فى جميع النواحى والأمصار ، [٥] فلو لم يكن له من المآثر غيرُ هذا لكفى الناس فرجاً ورحمة واسعة ، بعد ما شمِلهم من المكروه فى خلافة أبى جعفر وما استمر عليه المهدى من حفظ الضياع المقبوضة عنهم ، إمّا لطمع فى استغلالها ، وإما استصواباً لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه إنه ظلم العباد فى أموالهم .

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبى جعفر بما هو آخذ فى سياسته من

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤ (٢) وهو المأمون عبد الله (٣) أجمع المؤرخون على أن الرشيد كان يقتفى سيرة جده فى السياسة ويطلب العمل باثاره
(٤) الفخرى ٢٣٣ (٥) الماوردى ١٥٦

الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم، حتى إنه ليزيد عماله تَجِلَّةً كلما عظُم قدرهم واستفحل فى الاسلام ملكُهم، فهذا رَوْحٌ من أمراء آل المهلّب، لمّا عظُم فى الدولة أمره، ودانت الرقاب المتطاولة له، أفرغ النعمة الواسعة عليه، وجعل الولاية من بعده إرثاً فى ولده، وكذلك إبراهيم من أمراء الأغالبة، لمّا تمكن سلطانه من أهل المغرب أمّره على إفْرِيقِيَةَ إلى أطراف الثغور، وجعل له الولاية فى بيته ليكون ممتنعاً على العدو وكفيلا برد الفَرَنْجَة إلى ماوراء البحر. وهذا أمر يدل على الحكمة التى فيها مصلحة الملة وإن كان وراءه من استقواء الأغالبة خوفٌ ما كان ليصبرَ على مثله أبو جعفر مع ماعَرفت له من التيقظ وسوء الظن بالمال، فانْ كان المنصور يحتال للامر حتى لا يقع فيه، فانّ الرشيد يحتال لما يقع فى يومه من الأمور على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الاسلام.

ولقد سمعت من يقول فى مجلس المُراواةِ إن الرشيد يقتفى سيرة جده فى السياسة، وذلك مردود عندى من حيث امتناع المماثلة بين الحلم والظلم، وإلاّ فان كان الرشيد يُمْضِى بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالاحسان إليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعتـه، كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى لا يستطيعوا مغالبتَه، فما الغاية المقصودة من سياستهما إلاّ واحدةٌ غير أنّ سياسة الحلم خير من سياسة القتل والظلم، إذ يكون لصاحبها من دالّة الرعية غِبْطَةٌ يُحْرِمُها البغاةُ الذين فى نفوسهم مرض من الظلم، إذ يحجُبهم عن رعيتهم سِتْر الخوف، ثم يقتُلهم استنكارُ من حولهم من الناس والأشياء، كما تقدم فى الكلام على أبى جعفر.

أمّا سياسة الرشيد مع أهل البيت فيُظَنّ فيها خروج عن العدل لاستمراره

على هضم حقوق الذُرِّية ، وإن لم تكن مُجْـراةً على ما رسم أبو جعفر من تتبعهم فى كلِّ الوجوه فانما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياستان بين اللين والعنف . ولقد كنت أساير الرشيد فى بعض الأيام فقال لى بلغنى أن العامة يظنون بى بغض علىّ بن أبى طالب فوالله وتربةِ أمير المؤمنين أبى إنّى ما أحب أحداً حبى له ، ولكنَّ هؤلاء (يريد آله) أشد الناس بغضاً لنا ، وسعياً فى فساد دولتنا ، بعد أخذنا بثارهم من بنى أميّة ومساهمتنا إياهم ما حوينا ، حتى إنهم أميل إلى بنى أميّة اليوم منهم إلينا فكنت فى ذلك الوقت بعيداً عن الوثوق بصحة هذا الايهام ، ولكنْ ظهر لى بعد ذلك أنّه لا يروم إقصاءهم إلاّ على غير مكروه يُصيبهم ، وأنه لو قدر أن يرفع عنهم الضيم الذى يلحقهم من جور العباسيين ، وهو موقن ببقاء الخلافة فى يده من غير منازع له فيها ، لفعل وطاب بذلك نفساً ، فلقد علمت أن المكروه الذى ألمَّ بيحيى بن عبد الله بنِ الحسن إنما كان بسعاية أقاربه من العباسيين الذين لم يسعْه مخالفتُهم ، وهو بموقف يخاف منه الفتنةَ ، وكذلك مَقْتل موسى ابن جعفر الأمامِ لم يقع من نفسه برضاه ، لأنه لم يكن مُتَّهماً فى بدعة ولا ظنيناً على دِخْلة مكروهة ، ولما قتلوه فى حبسه أظهروا أنه مات حتفَ أنفه ، ومشى الرشيد فى جنازته إلى باب التبن حيث مقابر قريش فويق نهر عيسى الهاشمى ، فكنت أحيط به فى ذلك اليوم مع البرامكة فسمعته يترحَّم عليه ، ويُظهر براءته من دمه ، غير أنّ تغاضيَه عن هذه المؤامرة ، وإنْ هو لم يدخُلْ فيها غَرَرٌ يُسأل عنه يومَ الحساب ، لأنه يجب على خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم أن يتّبعوا سنته التى هى العدل ، ولا يتسامحوا فى قتل الأبرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ما صحت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وأبى جعفر إلى الغاية التى يرجوانها جميعاً من تأييد الدولة بها ، وإنْ لم تتوافق إليها السبل ، وقد وجدتُ للرشيد أعزه الله فضلا فى تدبير المملكة أحقّ بالثناء الجزيل . وأبقَى للذكر الجميل مما رأيناه لأبى جعفر (غفر الله له) بما ينال الرشيدَ من المشقة فى ركوبه إلى أطراف المملكة لتفقد ثغورها ، والنظرِ فى تَظلُّم الناس من ثِقَل يقع عليهم فى الخراج ، أو ضيم يلحقهم من جور العُمَّال . فاذا صار إلى البُلْدان العالية مما وراء خُراسان حيث لا يُعْرَفُ اللسان العربىّ أخذ التراجمة [١] معه حتى لا يفوتَه شىء من أمر الرعية ، فهو يحجُّ سنة ويغزو سنة ، كذلك عادتُه من يوم وَلِىَ الخلافة [٢] قال الشاعر يمدحه على بعد هذه الهمة منه [٣]

فمن يطلب لقاءك أو يُرِدْهُ ... ففى الحرمين أو أقصى الثغور

وقال الآخر [٤]

أَلِفَ الحجَّ والجهادَ فما يَـنْـفَكُّ عن غزوتين فى كل عام

وربما رام فى أسفاره أو بالزَّوْراء أن يعرف ما يدور بين الناس من الأحاديث والأخبار فيتخفى فى زِىِّ التجار ، [٥] ويطوف الأسواق مع جعفر وزيرِه ومسرور خادِمه لاستطلاع ما لا يصل إليه خبرُه من أمر السُّوقة والعوام ، فنجَم عن عنايته بهذا الأمر كثير من الفوائد التى صلَحت

---

(١) المقريزى ١ : ٨ (٢) هو أمر معروف تجده فى كتب المؤرخين وزاد فى العقد الفريد على ذكر حجه ماشيا أنه لما مشى الى مكة ومشت معه زبيدة كانت تبسط الدرانك أمامهما وتطوى خلفهما (٣) أبو الفرج والخميس ٢ : ٣٣١ (٤) فوات الوفيات ٢ : ٣٩١ (٥) الاغانى ٦ : ١٣٧ والاتليدى ١٢٦ والاسحاق ٩١

بها دولته ورعيته جميعاً ، فقد قال جعفر (أعزه الله) إنَّا ما ضبطنا بغد بالشُّرْطَةِ ولا عُنِينا بتقدير الأوزان وتمييز المغشوش من السِّكَّة إلاّ وجدنا من الاختلال فى تَطْوافنا بين الناس .

البرامكة نُكْتَة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التى يباشرها الرشيد إنما هى باشارة البرامكة الذين رفعوا مَنار الاسلام[١] بصلاح مشورتهم إليه فى أمور الخلافة ، ولذلك صَيَّر إليهم النيابةَ فى الدولة[٢] والنظرَ فى ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة ، وحفظِ اللسان فى بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الأمصار بعض الفساد ، [٣] فصار جعفر يُسَمَّى بالسلطان إشارةً إلى عموم نظره فى عموم الخلافة ، لأن الخِطط كلَّها بيده إلاّ الحِجابة لم تكن له لاستنكافه عنها ، لأن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود فى تحياتهم وخطبهم والآدابِ التى تلزم بين يدى أمير المؤمنين ، [٤] وذلك مما يُنزِّه نفسه عنه ، وهو بالموضع الذى علِمتَ من جلالة القدر والقيام بسياسة الدولة .

ولقد كان يحيى أعزه الله قائماً بأَوَدِ الوزارة من قبلُ ، وهو الذى قلَّد الرشيدَ الخلافةَ بحكمته ودرايته[٥] حتى إذا استوثق له الأمر قال له أنت أجلستنى فى هذا المجلس بيمنك وبركتك ، وقد قلَّدتنى الأمر يا أبت ، ثم دفع إليه خاتَمه وقلَّده أمرَ الرعية بأن يحكم بما يرَى ، ويعزلَ من يرَى ، ويستعملَ على

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٧ (٢) المقدمة ٢٠٧ (٣) المقدمة ويتضح ذلك من كتب الذين دونوا اللغة فى أيام الرشيد (٤) المقدمة ٢٠٧ (٥) ابن الاثير والفخرى والطبرى

الولاية على من يرَى ، وفى ذلك يقول إبراهيم المَوْصِلىُّ النديمُ [١]

أَلم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورُها
تلبّست الدنيا جمالا بملكه فهرونُ واليها ويحيى وزيرُها

فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة إلى تقويم الدولة فى المشرق حباً فى الرشيد أنْ تعظم فى الاسلام صولتُه ، على حين لَايَحْرِم أهلَ البيت قيامَ ملكهم فيما وراء البحر ، مع ما يكون فى ذلك من حقن الدماء الطاهرة ، وسلوك السنن الشريفة ، فانتج له حسنُ نظره أن يُطَوِّقَ أمر الجند إلى غير العرب ، الذين لا يقدرون بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من أخوانهم بما يكون بينهم من القرابة والدَّالّة ، فلقِىَ دون بلوغ غرضه من هذا الأمر صعوبةً كادت تُفْضى إلى الفتنة ، بما وقع من الضغائن بينه وبين يزيد بن مزيد [٢] وغيره من أمراء الجيش ، إلاّ أن الرشيد كان على موافقته [٣] فيما يرى فيه مصلحتَه ، فاذا فتح الناس عليه باب الفُرْقَةِ أرسل إليهم الفضل أو هَرْثَمَةَ بن أَعْين [٤] فجبرا الوَهْىَ فى أقلَّ من طَرْفة عين .

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أدركه الشيب ، ففوضها الرشيد إلى الفضل ثم إلى جعفر [٥] بعدَه ، وعهِد بالمراتب إلى إخوته وأقاربهم ، [٦] وهم بمكان من الفَطانة [٧] التى توارثوها مع المجد طِرافا وتِلادا ، فقاموا بأَوَدِ

---

(١) المسعودى ٢ : ٢٠٧ وابن الاثير ٦ : ٣٩ والأغانى ٥ : ٤١ والمستطرف ٢ : ٩٧ والاتليدى ٩١ والمحاضرة ٢ : ٤ ١١ والسيوطى وابن خلدون (٢) ابن الاثير ٦ : ٥١ يذكر انحراف بنى شيبان عن البرامكة كما مر (٣) المقدمة ١٥٩ (٤) راجع كتب المؤرخين (٥) و (٦) المقدمة والعقد الفريد (٧) ابن خلكان ٢ : ٣٦١

الوزارة وجمعوا إليهم مراتب السيف والقلم ، يقول سَلْم الخاسر [١] فى شرف الدولة بمحاسن عقولهم .

اذا ما البرمكىّ غدا ابنَ عشر فهمتــــه أميرٌ أو وزير

إلا أنه كان منتهى نظرهم فى السياسة [٢] إلى جعفر ، هذا السلطان ، وهو حاضر الرّويّة ، مؤيَّد البديهة ، جامعٌ لخصال الخير ، مؤتمن على الأسرار بارع فى مهمات الأمور ، وليس فى أهل الأدب من هو أذكى [٣] ولا أفطن ولا أعلم بكل شىء ولا أفصح لسانا ولا أبلغ فى مكاتبــة منه ، [٤] خلق جميل ، وأصل نبيل ، وعلم جزيل ، وكان الرشيد يقدِّمه على الفضل بما يُسرع فى استنباط الحيلة لتدبير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب ، كما يقول فيه الشاعر .

وزير إذا ناب الخلافة حادث أشار بما عنه الخلافةُ تصدرُ

ووجدتُ فى نفس الرشيد من الميل إليه بحيث إنه لم يكن له صبر على مفارقته فى ساعة من نهار أو ليل ، [٥] وإذا دخل أجلسه على سرير الخلافة بجانبه وأجلس بنى هاشم على الكراسىّ والوسائد [٦] دونه ، وربما قدمه فى المشورة على أحبِّ أهل بيته إليه ، حتى إنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يصلهم بمال إلاّ برأيه ورضاه ، وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بنى هاشم [٧]

---

(١) المحاضرة ٢ : ١١٤ (٢) العقد ٣ : ٢٧ (٣) الوطواط ٢٤٩ وابن خلكان (٤) الاغانى ٤ : ٨٥ والحصرى ١ : ٣٧٥ والعقد ١ : ٣٧٢ (٥) الاتليدى (٦) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم بمجلس الخليفة الاغانى ٤ : ٩٢ (٧) هو من القواد الذين غزوا الروم وقد عقد الفداء مع نقفور فى اللامس على جانب البحر على اثنى عشر فرسخا من طرسوس واسترجع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة . ابن الأثير ٦ : ٥٧

أن الرشيد غضِب عليه فقصد باب البرامكة ، فقال له جعفر أنت تقصدنى فهل من حاجة تبلُغها مقدُرتى وتحيط بها نعمتى فاقضيَها لك ؟ فقال عبدالملك نعم . إنّ فى قلب أمير المؤمنين علىّ مَوْجِدَةً أحب أن تخرجها من قلبه وتعيد إليه جميل رأيه فىّ ، فقال له جعفر قد رضِىَ عنك أمير المؤمنين ، وزال ما عنده منك ، قال عبد الملك وعلىّ أربعون الفَ دينار دَيْنا ، قال هى لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لأنى أُجِلُّ قدرَك عن أن يصلك بالمال غيرُه ، قال وابنى إبراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الألوية على رأسه ، قال لتطِب نفسُك ، إنّ الرشيد قد ولاّه مصر أو قال ماشئتَ من البُلْدان. فانصرفَ عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والاعجاب به ، حتى إذا كان الغدُ دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألفَ دينار ، وكتب سِجِلّ ابنه على مصر[1] . فهذا أمر يدلُّك على مكانة جعفر عند الرشيد وما لَه من الماتّة المرعية والشفاعة المقبولة عنده ، بحيث إنه يضمن عنه ضمانات لا يجد بدّا من وفائها ، كما يدلُّك أن مشاركته فى الملك لا تقف على حدّ السياسة فيما يبديه له من رأى جميل أو تدبير حسن ، وإنما يتناولها فى أكثر الأحيان بما بينهما من الدّالّة التى ليس مثلُها بين الاخوان ،[2] فما أذكر أنى رأيت الرشيد فى مجلس يطيب له نفسا بغير محضَره ،[3] بل كثيراً ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة ،[4] ويجلسان معاً . على محبة ومصافاة خُلّان .

---

(١) الاغانى ٥ : ١١٩ والفخرى والابشيهى ٢ : ١٩٢ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والاتليدى ١٦١ وابن خلكان ١ : ١٥٢ (٢) الحصرى ٢ : ١٠٢

(٣) الاتليدى ١٦٩ (٤) الأغانى والاتليدى وابن خلكان وابن خلدون

وإنْ كان ليحيى فضل فى تقويم هذه الدولة فان لجعفر فضلا فى تدبير مملكتها أتمَّ وأجملَ فى عين الرشيد، وقد أغناه بنفاذ سلطانه فى المشرق عن أن يطمع فى الاستيلاء على بلاد المغرب، ثم يبيتَ على خطر الفتنة التى لا يأمَن إن حدثت أن تبقى الخلافة فى يده، فلم يكن بُدٌّ لصلاح أمره من سلوك السبيل الذى مهّدَه له جعفر لتتم له الفائدة التى رامها أبوه فى تقويم الدولة و بلوغ غرضه منها فى المشرق، فوقفت مصلحة الدولة والاسلام جميعاً على أن يتبع الرشيد هذه الخُطَّة التى كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدَّم، ولجعفر من بعده الفضلُ اللاحق والمتمِّم.

ولقد شملت عناية جعفر خِطَطَ الدولة كلَّها بين مراتب سيف وقلم. إلاّ أنه كان إلى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين [1] أشدَّ منه عناية وأقرب من نفسه ميلا إلى النظر فى مصلحة الجند وهم الفُرْسان الذين لم يَرَ لهم مع ماهو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد، التى لايطيق الأعاجم مناجزتها فيهم، إلاّ أن يصرف إليهم أرزاقهم فى إبّانها ويرضيَهم بسعة العطاء من غير مال الخليفة [2] بما يقتصد فيه من نفقات الدولة. وأما مآثره فى تدبير المملكة فانها تتناول ضبطَ الأموال وترتيب ديوان الأعمال والجبايات [3] على غير مارسم أبو عبد الله فى كتابه [4] على الخراج، وإنما اقتصد من النفقة قدراً أبقاه للزيادة فى أرزاق الجند. وأقام على السجلات قوماً مَهَرة فى الحساب، [5] ليجد الموازنة بين ما يدخل بيت المال وما يخرج منه، وجعل لهذا

---

(١) انما دون العرب الدواوين عملا بطريقة الفرس من قبلهم ولفظة الديوان فارسية كما هو معروف (٢) ذكر المسعودى ١ : ٨٢ أن الخليفة يعطى الجند من بيت ماله (٣) المقدمة ٢١٢ (٤) ذكر الفخرى هذا الكتاب ٦١٦ (٥) المقدمة

الديوان شُعَبًا ترجع مصالحها إليه ، كديوان الخراج وديوان الضِّياع والنفقات [١] وغير ذلك ، وأحبَّ أن تُحفَظ دفاتر الخليفة للمراجعة [٢] لِيَنْظُر فيما يُتَصَرَّفُ فيه بموازنته للدخل الذى دُوِّن فى سجلات الديوان .

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة إلى النظر فى أمر الرعية والرفق بهم وإدخال الراحة عليهم ، وصحَّ عنده مساواة الناس بالأحكام التى لاتفرُق بين المسلم وغير المسلم [٣] إلاّ فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة ، وأقام رجال العدالة فى جميع البُلْدان لكتابة العقود على روابط الشرع [٤] ليكون فى ذلك حفظُ حقوق الأمة وأملاكِهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكَفالة ونحوها ، [٥] وأمرهم بأن يجلسوا فى الدكاكين والمصاطب ليسهُل وصول الناس إليهم ، فتجرى معاملاتهم على سَنَن العدل الذى يروم أن يشمَلوا به نفوسهم كما تشمَلهم به الدولة ، فكان (أعزه الله) يقول [٦] الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استنزر بمثل الظلم

ثم إنه نظر فى صلاح الزوراء ودسّ فيها العيون بإمرة عبد الله بن مالك صاحب الشُّرْطة [٧] لملافاة الخلل الذى يطرأ عليها من وفود الأغراب واختلاطهم ، [٨] وأقام العَسَسَ [٩] بالليل لحراسة الدروب [١٠] إلى أن وقع الأمن فى أحيائها ، وخيّم السلام على أرباضها ، وذلك يندُر أن يكون فى مدن الأعاجم ومحاشد مللهم ، فلقد ينمِى إلينا عن قاعدة الروم أن المكروه

(١) الأغانى ٩ : ٢١ و ٢٦ (٢) ذكر الأغانى هذه الدفاتر ١٤ : ١١٤
(٣) الماوردى ٣٩٣ (٤) العقد الفريد ٢ : ٢١١ (٥) المقدمة ١٩٦
(٦) العقد الفريد ١ : ١٣ (٧) ذكره الأغانى ١٧ : ٤٦ والمسعودى ٢ : ٢١٢ (٨) ابن خرداذبة ١١٦ (٨) الأغانى ٢ : ١٥٧ (٩) الأغانى ٧ : ١٩ والمستطرف ٢ : ١٨٦ (١٠) المقدمة ٤١٩

نازل بها كلَّ يوم لا محالة ، مع أنها مُحْتَشَد النصرانية ومَباءة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لا نظام لملكهم ، مع أنهم حَمَلَة العلم المتقلبون فى مهاد العمران على سَعَة واستقامة من الملك ، غير أن التَّرف قد غلب على عامّتهم حتى لا سبيل إلى ردعهم عن معاقرة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الأهواء (١)

ولما وضح للرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح به الملة والدولة جميعاً بلغت منه الثقة به إلى أن يُطوّقه السلطةَ التى تقارن سلطته ويشترك فيها معه ، ففوّض إليه القضاء بمجلس المظالم ، وهو القضاء الذى كان يباشره الخلفاء (٢) من الأمويين بنفوسهم ، ثم المهدىُّ من بعدهم كما رأيتَ فى موضعه من الكتاب ، فصار جعفر يجلس (٣) بجانب الرشيد على سريره ويشاركه فى توقيعه على القِصَص التى يرفعها الناس إليه ولكن بالعبارة التى يتنافس (٤) فى بلاغتها العلماء . (٥) فمن بعض ما حفِظت له من هذه التوقيعات التى جرت مَجْرَى الأمثال توقيعُه فى قصة رجل شكاه بعض عماله اليه « قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فاما عدلت وأما اعتزلت . » (٦) وتوقيعُه فى قصة قوم قطعوا الطريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » الآيةَ (٧) ووقّع إلى بعض عماله « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك

---

(١) وكان هذا من أسباب التوانى فى دولتهم (٢) أبو الفداء ٢ : ١١ وابن الاثير ٦ : ٢٩ وأبو الفرج والسيوطى والفخرى ٢١٢ والماوردى (٣) الأغانى ٤ : ١٦٢ (٤) الكنز ٩٤ (٥) ابن خلكان ١ : ١٤٧ و المقدمة ٢٠٧ (٦) ابن خلكان ١ : ١٤٧ (٧) العقد الفريد ٢ : ٢٣٣

عندنا » ووقَّع فى قصة محبوس « العدل أوقعه والتوبة تُطْلِقه »[١] ووقَّع فى قصة متظلم « طِب نفساً فكفى بالله للمظلوم ناصراً » ووقَّع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قد قدَّمتَ طاعتك وظهرتْ نصيحتُك ولا تغلب سيئةٌ حسنتين» ووقَّع وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطه «الخط خيط الحكمة يُنْظَمُ فيه منثورُها . وَيُفَصَّلُ فيها شُذورُها » ووقَّع فى قصة مُتَنصِّح « بعض الصدق قبيح » ووقَّع فى قصة رجل تظلم من بعض عماله « أنا لمثله حتى يُنْصِفَك »[٢] ووقّع فى قصة قوم شكَوْا سوء جوار بعض قرابتهم « يرحَل عنكم » ووقَّع إلى بعض عماله « أنصِف من وَليتَ أمرَه وإلاّ أنْصَفه منك من وَلِىَ أمرَك »[٣] ووقَّع فى قصّة رجل قد استأذنه فى الحج « من سافر إلى الله نجح » إلى غير ذلك من التوقيعات التى يتداولها الأدباء[٤] إلى أن تبلُغ القصة الموقَّعُ عليها عشرين درهما ثمناً[٥] فى أيدى الناس . وهذا ما أكتفى بذكره من مآثر هذا السلطان الذى ليس له ند فى الرجال ، وقد فَضَلَ الملوك قاطبة بالعلم والعقل والسياسة ،[٦] وزاد الرشيدَ عزّة ومَنَعَة على نحو لم نره قِدْماً فى دول الخلفاء فتولّى الله مكافأته عن المسلمين والاسلام بما هو واسع له من الجميل ، وجعل المجد لائذاً بجنابه والسعادة حافّة ببابه. آمين

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٣٢ (٢) العقد الفريد ٢٣٣ (٣) الوطواط ٣٥ (٤) السيوطى (٥) المقدمة ٢٥ (٦) أعلام الناس وابن خلكان ٢ : ٢٦١

صلاح التجارة والمعاملة

أخرُجُ بك قليلا عن موضوع السياسة إلى بيان المعاملة الرائجة بين الناس بقدر مايسمح لى المقام ، فانّه لما توفّرت فى أيديهم الأموال بما كسبوا من الفتوح العظام ، وقد نزلوا الأمصار التى كانت مستودَع الدَّعة عندنا ومستقر مَلَاذّ الروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر ، فتحولت طباعهم من الخشونة إلى نعومة العيش ، وأخذوا يتأثلون الكسبَ ويطلبون حاجاتِ الترف من جميع البُلْدان بما تيسر لهم من أسباب الاتصال فى زمن الخلفاء ، فما أتم الرشيد العناية بتأمين السبل لقوافلهم وتمهيدها لسفر تجارهم ، حتى حملوا تجارة الدنيا إلى العراق ، فحملوا من الهند آنيتَها ومن أَصْبَهانَ وشيرازَ ويَزْدَ شرابَها [١] ومن خُراسان حديدَها ومن كَرْمان رَصاصَها ومن قشمير النسيجَ الملون ، ومن الصين الكَمْكامَ والعود والمسك والسِنَّوْر والسروج والغَضائر والدارصينى والخَوْلَنْجان ، ومن اليمن العطر [٢] وأنواع الطيب ، ومن فارس السلاحَ والمصوغات ، ومن عَيْذاب اللآلئ ، [٣] ومن الوَقْواق الذهبَ والأَبَنوس ، ومن الهند والسند القُسْطَ والقنا والخيزُران والكافور والعود والجوز بَوَّى والقَرَنْفُل والفاغره والكَبَّابة والنارَجيل [٤] والثياب القطنية والمخمَّلة والفيلة ، ومن سَرَنْديب ألوانَ اليواقيت وأشباهها والماس والدر والسُنْباذجَ الذى يعالج به الجوهر ، [٥]

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٣٤٤ (٢) القزوينى ٢٠٩ (٣) المسعودى ١ : ٣٩ (٤) ابن خرداذبة ٦٨ (٥) الأغانى ٥ : ٢٤

ومن ناحية الجنوب البقّم الدارىّ ، ومن البحر الغربى المَرْجانَ ويكون بأرض الفرَنْجَة ، ومن الروم المُصْطَكا والجلود والغلمان والرقيق [١] ، ومن الشام الفاكهةَ والسلاح والحديد الذى يقلع من جبل لُبْنان . ومن الروسيا جلود الخُزَر والثعالب يأتى بها الروس إلى بغداد عن طريق سورية أو عن طريق جُرْجان [٢] ثم تحمل إلى أصْبَهان والجزيرة وآمد ونَصِيبين [٣] ويتجر بها .

هذه هى تجارة الشرق [٤] قد حملت إلى العراق ، وأما تجارة الغرب فقد تعذر نقلها لبعد المسافة وترامى الشُّقَّة ، ولذلك كان يرَى الرشيد فتح البحر عند السُّوَيْس [٥] حتى يُقَرِّبَ المجالَ من المغرب إلى عُمانَ فسيراف ففارس فأطرافِ العراق ولا سيّما أنّ على البحر الرومى سواحلَ إفْرِيقِيَةَ وتونس ومصر وطرابُلُس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحلَ صقلية والفرَنْجَة إلى الشّمال ، وسواحلَ الروم والشام إلى الشرق ، وإنها لَبُلدان كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات . فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها إلى بغداد على مراكب البحر من طريق السويس ، ولكنّ جعفراً (أعزه الله) قد ثناه عن هذا الأمر وخوّفه أن تصل سَرايا الروم وسائر الفرنجة إلى جُدَّة ، فيخرِّبون المواطن المشرَّفة ، [٦] على حينِ لا يُتَوَقَّعُ لقدومهم أثر ، فقال جعفر « يا أمير المؤمنين إنّ خَرْق السُّوَيْسِ خرق فى الاسلام ولو أنك وجدته مخروقاً بأيدى الملوك الذين سبقوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سدُّه لأن مصالح التجارة لا تقضى على الاسلام بتضييع الفتوح التى دانت له

---

(١) ابن خرداذبة ٨١ (٢) ابن خرداذبة ١١٦ (٣) ابن الاثير ٥ : ١٠١
(٤) الأغانى ٥ : ٢٤ وابن الاثير ٥ : ٢٢٥ والقزوينى ٢٠٩ (٥) المسعودى ١ : ٢٩٩ والمقريزى فى الخطط والسيوطى والمقدمة ٢١ (٦) السيوطى والمسعودى

يبذل الدماء » وهذا رأى لا يبدو إلاّ لمن رُكِّب فيه إسجاح الخليقة ومَعْدَلَة النظر ، فان العلماء كلَّهم قد ضلوا عن إدراك ذلك ، وإنما خوَّفوا الرشيدَ علوّ البحر الرومى على بحر القُلْزُم ، وأنه إذا ريم خرق ما بينهما طمَى البحر على أرض مصر وأغرق عيذابَ والنوبة وسواحل اليمن والحجاز ، ولكنّ قولهم بعيد عن الصحة ، لما يُعلم عن بحر الظلمات إلى ما وراء الأندلس أنه لم يطمِ ماؤه على سواحل البحر الرومى مع كونه يعلوه من حيث الاقليم ، فما يثبت عند العاقل الاّ أن سطح البحور متساو فى الشَّمال والجنوب ، ولم يُسْمَع ببحر أخفضَ من غيره إلا بحرَ لوط فى أرض الأرْدُنّ من إقليم فِلِسْطين ، ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوْقيانوس المحيط ، وانما هو مياه تصب فى متحدَّر من الأرض .

ولما اتسع نطاق التجارة فى بغداد أصبحت مورِداً لأهل الاعواز من البلاد كافةً يتناولون فيها حاجتهم من المال ، فوقع غشّ فاحش فى التجارة وصارت الصيارف من اليهود [١] وغيرهم [٢] يُعطون مالهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل فى آخر العام مثلين [٣] وأكثرَ منهما ، فأقام الرشيد مُحْتَسِباً يطوف بالأسواق ويفحَص عن الأوزان والمكاييل وينظر فى معاملات التجار [٤] أن تكون جارية على سَنَن العدل ، حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الأغنياء على الفقراء ، إذ الواجب على الملوك أن يمهدوا سبيل الارتزاق لأهل الحاجة أكثرَ منه للمتمولين المنسلخين للتجارة الذين نراهم يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم

---

(١) الأغانى ٣ : ٨٥ (٢) الأغانى ٣ : ٨٣ و ٥ : ١٦١ (٣) كليات ٩٩ والأغانى ٢ : ١٥٤ (٤) الأغانى ١٧ : ١٠٨

يبيعونها بما يشاءون من الغلاء ، فان ذلك احتكار يُفْضى إلى فساد العمران كما مرّ فى موضعه من الكتاب . وقد أخبرنى الرشيد فى بعض مجالسى إليه أنه يروم أن يُصلح معاملة التجار ويغيِّر تقدير الدنانير والدراهم على وزن واحد صحيح ، (١) ولكنه لم يباشر ذلك إلى هذا اليوم ، مع أنه أصْلَحُ ما يكون للعمران ، وإنْ كان ضرب السِّكَة فى الاسلام قد حدث عن نكاية وقعت ضغائنها بين عبد الملك بن مروان وقيصر الروم كما هو معروف (٢) فقد أصبح اليومَ من الضرورة أن تُقَدَّر أوزانُها بعد ما ساءت المعاملة فى تأدية الخراج والبيع والشراء . وقد كان العرب يتعاملون قِدْماً بالذهب والفضة وزناً ، (٣) وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التى يقال لها الكِسْرَوية والقيصرية ، فلما ذهبت سذاجة الاسلام وصارت الخلافة إلى ملوك أمية ، وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم ، تفاحش الغش فى التجارة وصارت تُنْسَب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر ، فَعُنِىَ عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدراهم ، فضرب السكة فى دِمَشْقَ (٤) وصرفها فى جميع النواحى والأمصار ، ولكن من غير أن يقدِّر أوزانها ، فبقى منها الخفيف (٥) والثقيل وما هو بينَ ، ولذلك لم تسهُل المعاملة بها بين التجار ، حتى إذا تنبّه لما فاته من تقديرها على وزن واحد وأحبَّ أن يميِّز القديم منها عمَد إلى تعيين السنة على السكة المقدَّرة بعد أن كان يضربها خِلْوا من التوقيت إلاّ « بركة الله » فى أحد الوجهين واسمه فى الوجه الآخر . وهذا

(١) المحاضرة ٢ : ١٧٤ (٢) الاتليدى ٢٧٤ (٣) المقدمة ٢٢٧
(٤) ابن الأثير ٤ : ١٧٤ (٥) ذكر الدراهم الخفيفة الاغانى ١٠٤

كان منشأ الخلاف فى أول من ضرب السكة التى ليس فيها توقيت ، فيقول بعض الناس إنها من ضرب عمرَ بن الخطاب ،[١] ويقول غيرهم إنها لمُصْعَب ابن الزبير،[٢] ويقول بعض إنها لمعاوية بن أبى سفيان ، ويزعمون أنه صوَّر نفسه عليها متقلِّداً سيفاً [٣] كأنه فاتهم علمَ موضِعِه من الخلافة وحرصِه على متابعة الملة والشرع ، إلاَّ أن ما يذهبون إليه من هذه الأقاويل ليس بمُجْمَع على رأى منه . ولم يقع إلىّ من الدنانير الموقوتة إلاّ ما ضرب هذا الخليفة المقدَّمُ ذكره فى السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرَّفة ، وعليه جرى الخلفاء بعده فى ضرب السكة ، بأن يرسُموا فيها « بركة الله » من وجه ،[٤] وعلى دائرِه « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » واسمَهم من الوجه الآخر يُحَوِّطونه بتعيين السنة وذكرِ البلد الذى يضربون فيه السكة .

وأما الأوزان المقدَّرة فان المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطَّبَرى وهو أربعة دوانق ، والدرهمِ المغربىّ وهو ثمانية ، والدرهمِ اليمنى وهو ستة والدرهم البغلى « وهو الذى يقال إنه ضرب فى خلافة عمر رضى الله عنه على وزن الدراهم الكِسْروية » وهو ثمانية دوانق ، فأمر الحجاج أن يُنْظَرَ الأغلب فى المعاملة فكان البغلىّ والطبرىّ وهما اثنا عشر دانقا ، فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدَّر الدرهمَ ستة دوانق . وأما وزن مثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم ، حتى إذا جُمِعَ عشرةُ دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل [٥] والناس

---

(١) المقريزى (٢) ابن خلدون ٣ : ٤٥ والماوردى ٢٦٩ (٣) الاتليدى نقلا عن الدميرى (٤) الانس الجليل ١ : ٢٤٠ والمحاضرة ٢ : ١٧٤ والاتليدى ٢٧٤ (٥) المقدمة ٢٢٧

يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج ، إلاّ أن ما فى أيديهم منها مختلف الأشكال ، فلا تتناول الدولة منهم فى الخراج الا الدنانيرَ العبّاسية والدنانير المسماة بالخالدية [١] واليوسُفية والهبيرية ، وهى أجود النقود التى ضربها بنو أمية [٢] على يد عمالهم فى العراق مثل أبى هبيرة ويوسُف بن عمر وغيرهما ، ولذلك رأى الرشيد أن يقدِّرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبقى للغش فى التجارة مجال ، ولا يحصلَ عنف فى جباية المال .

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا إلماع بذكر محاسن دولة الرشيدِ وإنها لَدولة خيرٍ وصلاح كما علمتَ ، فما حدّث أهلُ الأخبار أنّ الاسلام كان فى أية دولةٍ أعزّ جانباً ولا أوسعَ رُقْعة مملكة [٣] منه فى خلافة الرشيد . ولعمرى إنّ الملوك الذين يتعهدهم النصر مثلَه فى جميع ما يباشرون من الأعمال قليل فى العالَم ، فما رأيته والبرامكةُ أعوانٌ له قد نُكِب فى حرب قط ، ولا توجهتْ عليه هزيمة ، وإنما أعزَّ الاسلام باجتماعه فى المشرق كلِّه إليه ، ورَمى ملوك الأعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم من الروم وسائرِ الفَرَنْجة ، وهذا شرف للسيف لم ينله المسلمون فيما تقدم لهم من الدول السالفة مقروناً بفضائل العلم وجمال الحضارة ، وكفى بشرفَ دولته أنه اجتمع ببابه من الوزراء [٤] والأمراء والقواد والعلماء والفقهاء والأدباء والخطباء والمحدِّثين والقُرّاء والرُّواة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيرِه

(١) الماوردى ٢٦٩ (٢) ابن خلدون ٣ : ٤٥ (٣) الفخرى ٢٣٣
(٤) ابن الأثير والفخرى ٢٣٣ والخميس ٢ : ٣٣٢ والماوردى ٣٣

مثله ، فان البرامكة أعوانُ دولتـه ، وأبا يوسف قاضيه ، وَهَرْثَمَةَ ابنَ أَعْيَنَ أميرُ جنده ، والعباسَ بنَ محمد عمَّ أبيه جليسُه ،(١) ومَرْوانَ بنَ أبى حَفْصَةَ شاعرُه ، والأَصْمَعِيَّ محدثُه ، وأبا نُواسٍ نديمُه ، والفضلَ من آل الربيع حاجبُه ، وإبراهيمَ المَوْصِلِيَّ واسحاقَ ابنَه مغنّياه ، وابن بَخْتيشوعَ جبريل(٢) وبنى ماسَوَيْهِ أطبّاؤه ،(٣) والعلماءِ والأدباء كلُّهم قيام على بابه لا يفارقونه فى حَضَر ولا فى سفر ، حتى إنه ليَطلب شاعره فى أطراف الليل(٤) فيجدُه ببابه مع غيره من محدِّث أو نديم .

وإنما قرَّب العلماء إلى الرشيد مابنفسه من الميل إلى الأدب(٥) والحرصِ على إحراز العلوم ،(٦) حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم(٧) من حيث العلمُ والتواضعُ له ، لا من حيث السيادةُ عليهم ، وهو بموضعه الجليل من الخلافة ، وأنا لا أريد بذلك أنّ التواضع طبيعـة فى نفسه ، لأنه لو لم يأته الكبر من ناحيـة العلم لأتاه من ناحية السلطان ، وكلاهما داع إلى الاعجاب بالنفس ، فكثيراً ما كنت أراه إذا انتصب فى عرشه يحتمل أن يُمْدَح بما يمدح به الأنبيـاء ، وهو لا ينكر ذلك ولا يردُّه ،(٨) غير أنه ربما كان يبتغى بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع فى نفسـه من الاجلال له أن تحصُل له الغاية التى يرومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من أهل العلم ، حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف .

---

(١) الخميس ٢ : ٣٣٢ (٢) الفخرى والمسعودى ٢ : ٢١١ وابن الاثير ٦ : ٧٥ والمقدمة ١٦ (٣) أبو الفرج (٤) الأغانى والاتليدى (٥) ابن الاثير ٦ : ٧٨ والفخرى ٢٣٠ والاسحاقى ٩٠ والدميرى ١ : ٩٥ (٦) الشرقاوى ٢٢٢ (٧) القزوينى ١٠٦ (٨) السيوطى والأغانى ٩ : ٨٦

أما أدبُه وفضله وصحة ما عنده من النظر فى تخيُّر ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذى تقدم الالماع إليه فيما مضى من الكتاب، ورأيته يتوسع فى أدب اللغة إلى أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام، فاذا دخلت عليه عرضه علىَّ فى سبيل الفكاهة فمن ذلك قوله فى جارية[١] تركية له.

يا ربّة المنزل بالفَرْك ... وربّةَ السلطان والملك
ترفق بالله فى قتلنا ... لسنا من الديلم والترك

وقولُه فى قَيْنَة له[٢]

تُبدى صدوداً وتُخفى تحته مِقَةً ... فالنفس راضية والطَّرف غضبانُ
يا من وضعت له خدى فذلله ... وليس فوق سوى الرحمن سلطان

وقولُه[٣] فى رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عراه على فقدها من الحزن ما ضاق له الصدر، وفرغ دونه الصبر.

قاسيتُ أوجاعا وأحزانا ... لما استخصَّ الموت هيلانا
فارقت عيشى حين فارقتها ... فما أبالى كيفما كانا
قد كثر الناس ولكننى ... لست أرى بعدكِ انسانا
والله لا أنساك ما حركت ... ريحٌ بأعلى نجدٍ اغصانا

إلى غير ذلك، وكان من الفضل بحيث إنّ ما أدبه لم تخلُ قط من عالم أو أديب أو شاعر. وكان يستدعى إليه العمرىَّ والفضل بنَ عِياض[٤] وابنَ

---

(١) الأغانى ١٢ : ١٨ (٢) العقد الفريد ٣ : ٢٥٧ (٣) السيوطى (٤) المقدمة ١٥ والمستطرف ١ : ١٠١ والخميس ٢ : ٣٣١ والاسحاق ٩٠ والسيوطى

السمّاك الكوفيّ [١] واسحق الفزاريّ وغيرَهم من الأولياء فيحاورهم فى مسائل الدين [٢] ويبكى [٣] من مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم ، حتى إذا جلس معاويةُ المحدِّثُ الضرير إلى طعامه قام من موضعه وصبّ الماء على يده تعظيما لقدر العلماء ، فقال له معاوية يا أمير المؤمنين إن تواضعك فى شرفك لأشرفُ من شرفك [٤]

أما زينة الدولة من الأدباء فثلاثة إسحق بنُ ابراهيم النديم وعبد الله الأَصْمَعِيّ والحسن بن هانئ المعروف بأبى نُواس ، وكلهم إمام فى العلم ، إلاّ أنه غلب على إسحق الغِنـاء ، وعلى أبى نواس الشعر ، وعلى الأصمعىّ الأخبار والنوادر والمُلَح .

فأما إسحق فانه بالمكان الرفيع من الأدب ، [٥] وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدوّنات العلم ما ليس عند الذين يُعْنَوْن بجمع صنف واحد من صنوفه مثلُه ، ولقد رأيت عنده من كتب اللغـة مثلا ما ليس مثلُه فى خزانة ابن الأعرابى ، [٦] وله مقـام سام بين العلماء حتى إنهم ليُهْدُون إليه كثيراً من تآليفهم ودواوينهم كأبى نواس وابن أبى عيينة [٧] وابن الأعرابىّ [٨] وغيرهم تنشيطاً لعلمه وأدبه ، لأن انصبابه على الغناء لم يكن حرفة للتعيش ، وإنما هو ميل بنفسـه إلى محاسن الأدب والصناعة ، فكان يترفع عن أن يغنّى إلاّ فى دور الرشيد والبرامكة ، وكانوا إذا حضر مجالسهم يؤثرون محاورَته

---

(١) العقد الفريد (٢) سراج الملوك ٣٠ (٣) ابن الاثير ٦ : ٧٨ والطرطوشى ٣٨ (٤) الفخرى ٢٣١ والسيوطى (٥) الأغانى والحصرى ٢ : ٢٠٦ (٦) ذكر ابن خلكان ١ : ٩٣ أنه كان عند ابن الاعرابى خزانة جمع فيها كتب اللغة (٧) الأغانى ١٨ : ١٢ (٨) الأغانى ٥ : ٥٥

فى العلم على جلوسه إليهم فى صفوف المغنين .[١]

ولقد كنت أسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر إسحق بلقب المغنى لوليته القضاء بين المسلمين ،[٢] ووجدتُ فى نفسه من جميل الميل إليه ما كان يحمله على أن يقصِد داره[٣] على سبيل التحبب ، ولقد كنت يوماً بداره وهى بباب الشَمّاسية[٤] من الجانب الشرقى تِلقاء قُطْرُبُّل ،[٥] فجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار الذى يركبه[٦] فى ساحات القصر وجنانه للنزهة ، ومعه خَمْسُمائة نفر من خدمه وغلمانه وندمائه ،[٧] فقام اسحق بالواجب من إكرام وفادته ،[٨] وأخرج الحلوى إلى خدمه بما كفَى الجمع كله ، ثم أشار إلى جواريه أن يجلسن للغناء ، فقال الرشيد لست أُريد هذا ، وإنما شوق فى النفس دعانى إلى الأنس بقربك .

وأما الأصمعىّ فانه قدِم بغداد[٩] فى خلافة الرشيد فى جملة من وفد عليه من العلماء . وهو إمام فى النوادر[١٠] والأخبار وأيام الناس مشهودٌ له بصدق الرواية ، ولقد حدَّث الرشيدَ يوماً عن ملوك بنى أمية فقال إنّ سليمان كان نَهِماً إذا قُدِّمَ إليه السِّماط لا يصبر حتى يبرُد بل يتناول اللحم بكمه ، وإنّ يزيد كان إذا جلس للشراب يسقُطُ الخمر فى ثيابه فصاح به الرشيد قاتلك الله

---

(١) الأغانى ٥ : ٦٠ (٢) ابن خلكان ٩ : ٩١ وكتاب الأغانى
(٣) الاتليدى ٢٨٦ والأغانى (٤) الأغانى ٥ : ٧ (٥) ذكره المسعودى ٢ : ٣٨٥ و٣٩٧ (٦) الأغانى ٥ : ٣٠ و ٤٦ (٧) ذ ياقوت ٤ : ١١٨ أن الخليفة كان يركب فى كذا وكذا رجالا وخدماً (٨) واتخذ الفرش من الخز المظهر بالسنجاب كذا فى العقد الفريد ٣ : ٢٤٠ وهذا نص كلامه فدخلنا دار ابراهيم الموصلى فاذا هى لا أشرف منها ولا أوسع واذا بفرشها خز مظهر بالسنجاب
(٩) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ (١٠) الشريشى ٢ : ٢٧٩

ما أصدقك فى نقل الأخبار! واللهِ إن ثيابهما عندى وإنّ الدُّهن لفى أكمام سليمان والخمرَ فى ثياب يزيد[١]، على أنه لم يكن بينى وبينه مع طول المدة التى أقمتها فى بغداد قربٌ ولا ائتلاف لانقطاعه عن مجالس البرامكة، وإنما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن طرائف بغداد، فأراه لا يَغْفُلُ عن نادرة مليحة إلاّ ويذكرها له، ولكن بالألفاظ التى تأخذ بمجامع القلوب، وكنت يوماً بين يديه وقد بدرَ من رجل ظريفةٌ فالتفت إليه الرشيد وقال له حررها يا أصمعى.[٢] وقد أخبرنى بعض أصحابه أنه أقام فى صباه بالبادية أياماً طِوالا يستطلع فيها عاداتِ العرب ويستكشف أخبارهم ويستنطق آثارهم، وقد شاهد ما يقيمون من المجالس والأسواق، وما ركب الله فيهم من السجايا والأخلاق، وما وقع لبنائهم من الشعراء، فلما أقام ببغداد أخذ يحدِّث بكثير من أخبارهم ثم اشتهر اسمه بين الناس بما هو آخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار عَلَماً فى المدينة، وصار يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجبَ منه.

وأما أبو نواس فان الشعر هو الذى يقدمه اليوم عند الرشيد، وقد[٣] كان أبو نواس يحدثه من قبل بنوادر الناس ولكن من غير أن يَفْكَه

---

(١) المسعودى ٢ : ٦٢٨ وابن خلكان ١ : ٤١٠ وتزيين الأسواق ١ : ١٤٣

(٢) المسعودى ٢ : ٢١١ والاتليدى ٩٦ والعقد الفريد

(٣) وربما حفظ له شيئاً من أبياته يتمثل بها فى مجالسته الأدباء فلقد سمعته مرة يقول لو قيل للدنيا صفى لنا نفسك وكانت ممن ينطق ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبى نواس. اذا امتحن الدنيا لبيت تكشف له عن عدو فى ثياب صديق
وما الناس الا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق

العقد الفريد ١ : ٣٦٩

باعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك ، فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا يحضرنى شىء ، فقال بحياتى [١] إلاّ ما قلتَ شيئاً ، قال كان الكذبُ عملى واليومَ هجرته يا أمير المؤمنين ، [٢] فضحِك وقال هذا أحبُّ إلىّ من الحديث ، وله كلام ظريف فى المجون والخلاعة [٣] وحوادثُ تدل على خفة رُوحه . وكان إسحق يتعصب له [٤] ويُشيد بذكره ويجهَر بتفضيله ويجلِب له الرِّفد من الرشيد ويحطُّ من قدر الأصمعىّ لتنافس بينهما ، [٥] حتى أخذ المقامَ الأولَ بين الندماء وبنى لنفسه فى نهر طابق الدورَ [٦] التى لم يبنِ مثلَها عظماء الناس ، بينما الأصمعىّ يستقرض من أصحابه [٧] حاجته من المال .

ومن خِلال أبى نواس المأثورة أنه يميل مع أهل البيت سراً لا يجسُر على المجاهرة بهِ ، وقد قيل له فى إعراضه عن مدحهم لقد ذكرتَ كل معنى فى شعرك وهذا علىُّ بنُ موسى الرضا فى عصرك لم تقل فيه شيئاً ، فقال واللهِ ما تركت ذلك إلا إعظاماً له وليس فى قدرة مثلى أن يقول فى مثله وأنشد [٨]

أنا لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه

وقد وقع تدوين هذه الرسالة فى السنة الحادية والثمانين بعد المائة من هجرة النبىّ صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من شوال والناس يتجهزون للخروج إلى الحج الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

---

(١) كلمة يقولها الخليفة عند التحبب الأغانى ٦ : ٧٥ (٢) المستطرف ٢ : ٦٠
(٣) الكنز ٩٤ (٤) الأغانى ٥ : ١٠٧ (٥) الشريشى : ٢ : ٢٧٤
(٦) ابن خلكان ١ : ٢٩٥ والأغانى ٣ : ١٦١ (٧) المستطرف ١ : ١٢٣ وذكر المسعودى ٢ ٥ ٢٢٣ انه رؤى فى دار الأصمعى خباء مكسور وعليه دراعة خلقة ومقعد وسخ وكل شىء عنده رث . (٨) ابن خلكان ١ ٥ ٤٥٧ .